الباب الرابع

انهيار الدولة العبيدية

لم يقف الصراع على منصب الوزارة عند حد التدخل في مبايعة وتنصيب الحكام، بل امتد إلى التحالف مع أعداء البلاد للقضاء على خصومهم.

ولقد تجلّى ذلك في شخصية فريدة في التاريخ الإسلامي هي شخصية شاور والي الصعيد الذي قضى على طلائع بن رزيك في شهر المحرم من سنة ٥٥٥ هجرية، لقد انفرد بالسلطة لكن أحد قواد الجيش واسمه ضرغام ثار ثورة عارمة، وتقلّد الوزارة عنوة، مما اضطر شاور إلى مراسلة صاحب دمشق نور الدين محمود للقدوم والاستيلاء على مصر.

أنفذ إليه نور الدين حملة بقيادة أسد الدين شيركوه، استطاعت الحملة هزيمة ضرغام، وسرعان ما أعيد شاور إلى منصبه في الوزارة في شهر رجب سنة ٥٥٩ هجرية.

لكن تغير شاور وطلب من أسد الدين شيركوه الجلاء عن مصر، ولما رفض أسد الدين الجلاء، أرسل شاور إلى عموري ملك بيت المقدس الصليبي أن أقبل لاحتلال القاهرة، فأرسل الملك الصليبي جيشاً اضطر أسد الدين إلى الرجوع بحملته من حيث أتى.

وسرعان ما بعث نور الدين محمود حملة ثانية إلى مصر بعد ثلاث سنوات بقيادة شيركوه نفسه وكان ضمن الحملة ابن أخيه صلاح الدين الأيوبي.

لما بدت طلائع الحملة لناظري شاور سارع يستدعي عموري وجيشه الصليبي وانضم إلى قوات شاور والمصريين، والتقى الجيشان الصليبي والمسلم في منطقة قرب المنيا اسمها البابان، وانتصر جيش شيركوه على القوات المشتركة، فأسرعت القوات المنهزمة إلى الإسكندرية تحاصرها براً وبحراً بعد أن دخلتها قوات المسلمين بقيادة صلاح الدين الأيوبي.

أرسل صلاح الدين يستنجد بعمه أسد الدين، فأقبل مسرعاً، وهنا اضطر الصليبيون وقوات شاور إلى طلب الصلح، واصطلح الفريقان على أن يعود الصليبيون إلى بيت المقدس وتعود حملة أسد الدين إلى دمشق.

لكن شاور أحب أن تبقى قوة صليبية في القاهرة حتى يقطع على نور الدين الطريق في احتلال القاهرة وضمها إلى دمشق، وذلك مقابل أن يتقاضى الصليبيون مئة ألف دينار سنوياً من خراج مصر.

كان ذلك يحدث والعاضد الحاكم العبيدي لا يدري من أمر البلاد شيئاً.

وسرعان ما انكشف للصليبيين ضعف الدولة العبيدية، وعاينوا عن كثب ما صارت إليه البلاد من اضطراب وقلاقل؛ فطمعوا في الاستيلاء عليها، فلم يضيعوا الفرصة وأرسلوا إلى ملكهم عموري يستحثونه على القدوم للاسيتلاء على القاهرة.

وفي أوائل سنة ٥٦٤ هجرية خرج عموري على رأس حملة ضخمة قاصداً القاهرة، ولكي لا يُكشف أمر شاور واتصاله بالصليبيين عمد إلى إشعال النار في الفسطاط بعد أن أخلاها من قاطنيها ورحلهم إلى القاهرة. وظلت المدينة في أتون النار أكثر من خمسين يوماً.

حاصر الصليبيون القاهرة حصاراً شديداً، ورأى شاور أن يراسل نور الدين طالباً النجدة، على أن ينزل له عن ثلث البلاد، وعلى أن يقيم بها القائد شيركوه بجنده.

جهز نور الدين قوة ضخمة بقيادة أسد الدين وتحت إمرته صلاح الدين، وغذّت القوة الطريق إلى مصر، ولما شارفت القوة على القاهرة أخذ المصريون يرحبون بالقوة المنجدة، فاضطر عموري إلى سحب جيشه إلى بيت المقدس دون شرط، ودخل شيركوه القاهرة سنة ٥٦٤ هجرية دخول الظافرين.

أدرك أسد الدين شيركوه أن القاهرة لن تخلص من الأطماع إلا أن يزاح شاور للأبد، وسرعان ما قبضت القوة عليه وقتلته.. وتنفس المصريون الصعداء.

وأصبح شيركوه صاحب السلطان في مصر، ولم يلبث الملك العاضد أن عهد إليه بالوزارة ولقبّه بالملك المنصور أمير الجيوش.

وأفلح شيركوه في فرض الأمن والنظام في البلاد، ووزّع الإقطاعات على جنده، وأعاد عمارة الفسطاط وردّ إليها أهلها.

لكن شاءت حكمة الله سبحانه وتعالى أن يلقى الرجل ربه بعد ثلاثة أشهر مكثها في منصبه الجديد.

وبدأ الصراع على منصب الوزراة من جديد بين رؤساء الجند الذين عملوا تحت إمرة شيركوه، فأيقن العاضد أن بلاده ستغرق في لجج الفوضى والاضطراب، فعهد إلى صلاح الدين الأيوبي بالوزارة، وكان يرى أن صلاح الدين في هذه السن الصغيرة (كان عمره ٣٢ سنة، ولد سنة ٥٣٢هـ) لن تكون له الشوكة ولا القدرة على الطموح إلى تولي الحكم.

صلاح الدين كان نسيجاً وحده:

فقد راح من يومه الأول في الوزارة يستميل قلوب أهل مصر إليه بما أغدقه عليهم من أموال، كما طمح إلى إضعاف نفوذ العاضد حين أمر بذكر اسم نور الدين محمود في الخطبة بعد اسم الحاكم العبيدي.

واجتهد صلاح الدين في إغداق الإقطاعات على جنده، وولاهم أرقى المناصب في الدولة.

تهامس أهل القصر بضرورة الخلاص من الوزير الشاب، ودبروا المكائد للخلاص منه. كان زعيم المتآمرين جوهر مؤتمن الدولة. استقر أمر المتآمرين على الكتابة إلى الصليبين وملكهم عموري للقدوم إلى القاهرة، فإذا ما خرج صلاح الدين للقاء عموري أسرع المتآمرون يقبضون على أعوان صلاح الدين، ثم ينضمون إلى قوات عموري للقضاء على صلاح الدين.

لم يكن صلاح الدين قائداً غراً، وسرعان ما ضرب الرقابة على جوهر، فأدرك ما يحاك له في الخفاء، فأسرع يرسل إليه بعض أصحابه يغتالونه وتم ذلك أواخر سنة ٥٦٤ هجرية.

ثارت جند الخليفة لمقتل جوهر. تجمعوا كلهم وقد بلغوا الخمسين ألفاً يطلبون الثأر، ودارت معركة رهيبة بينهم وبين قوات صلاح الدين في القاهرة

في حي بين القصرين، وسرعان ما انكسرت شوكتهم أمام قوات صلاح الدين وفر من بقي منهم إلى الجيزة، فتعقبّهم صلاح الدين في الصعيد حتى تخلص منهم جميعاً سنة ٥٦٥ هجرية.

غضب عموري لمقتل مؤتمن الدولة فنشط يستعدي ملوك أوربا على صلاح الدين وملكه نور الدين، واستجاب للنداء مانويل إمبراطور بيزنطة وأقبلت سفنه الغفيرة لتنضم إلى قوات عموري في دمياط وذلك في صفر سنة ٥٦٥ هجرية.

وكان صلاح الدين يرقب الموقف بعين يقظة، فيرسل جنده لملاقاة الغازين، ويرسل في طلب المدد من نور الدين، فيبعث إليه نور الدين المدد، كما أعانه العاضد بألف ألف دينار وثياب كثيرة.

قطع صلاح الدين المدد عن الغازين، ولم يمكن لهؤلاء الغازين اقتحام مدينة دمياط، وذلك لبسالة أهلها، ولمحاصرة صلاح الدين لقواتهم بقوات كثيرة، ولقد وصل إلى أسماعهم نبأ استيلاء قوات نور الدين على حصن الكرك الصليبي فأسرعوا يفكون الحصار عن المدينة ويكرون راجعين إلى بلادهم في شهر ربيع الأول من سنة ٥٦٥ هجرية.

وكبّر المسلمون، وحمدوا الله على نصره المؤزر؛ فقد باءت الحملة الصليبية بالفشل التام، واجتمعت القلوب حول صلاح الدين وأيقنوا أنه هو

القائد القوي الذي طالموا تطلعوا إلى أن يتولى أمرهم، وتبينوا أن الدولة العبيدية صارت سرابا.

ينشط صلاح الدين إلى إتمام ما بدأه من القضاء على الدولة العبيدية، وها هو يبدأ أولى خطواته بعد أن استقرت له الأمور في مصر بإنشاء مدرسة لتدريس المذهب الشافعي ومدرسة ثانية لتدريس المذهب المالكي، ويعزل قضاة الشيعة، ويسند منصب قاضي قضاة الديار المصرية إلى صدر الدين عبدالملك بن درباس الشافعي.

وانحسر المذهب الإسماعيلي عن مصر بعد أن ساد المذهب السني من جديد، وبعد أن صار القضاة كلهم شافعية.

انهارت سلطة العاضد حين تحدث صلاح الدين بضرورة خلعه وإقامة الدعوة لبني العباس في مصر.

أمر صلاح الدين الخطباء بإسقاط اسم العاضد من الخطبة وذكر اسم الخليفة العباسي المستضيء، ولم يلبث العاضد أن توفي سنة ٥٦٧ هجرية.

وكانت وفاته إيذاناً بانهيار الدولة الفاطمية وزوالها، وبذلك لم تفلح تلك الدولة في إزاحة الدولة العباسية التي قامت أساساً لتقويض أركانها، واستمرت دولة بني العباس بعدها ردحاً من الزمن إلى أن قضى عليها هولاكو المغولي سنة ٦٥٦ هجرية..

ما هي أسباب السقوط؟

بعد وفاة المستنصر سنة ٤٨٧ هجرية انقسمت الإسماعيلية في مصر إلى طائفتين.

الطائفة الأولى: هي طائفة النزارية نسبة إلى نزار بن المستنصر الذي أقصاه الأفضل بن بدر الجمالي عن الحكم.

الطائفة الثانية: هي طائفة المستعلية نسبة إلى المستعلي بالله أحمد أبي القاسم الذي انحاز دعاة الإسماعيلية في اليمن إليه، واتخذوا من مصر مقراً لهم لنشر الدعوة.

وبذلك انقسم دعاة الإسماعيلية على أنفسهم وضعفت الدعوة، وحارب أفراد الطائفتين بعضهم بعضاً؛ فقد انحاز دعاة الفرس بزعامة الحسن ابن الصباح إلى نزار (كما رأينا) واتهموا المستعلي باغتصاب الدولة والإمامة.

بل إن الحسن بن الصباح غالى في معاداة الحاكم الجديد فأبرز للإسماعيلية المؤلفات التي تثبت حق نزار بن المستنصر في الإمامة وتبطل إمامة المستعلي بالله.

وردّت الدولة الفاطمية في شخص دعاتها وأنصارها على الحسن وصحبه بتفنيد حججهم في أحقية نزار بالإمامة..

وفي عهد الآمر أبى النزارية الاعتراف بإمامته وسلطانه وحمل ذلك على أن يعهد لوزيره عبدالله المأمون البطائحي سنة ٥١٦ هجرية بأن يكتب رسالة إلى الحسن بن الصباح يدحض فيها آراء النزارية في الإمامة ويدعوه إلى الحق.

لكن تطورت الأمور سريعاً لدرجة أن دبرت مؤامرة لاغتيال الملك العبيدي ووزيره مما أضعف الحافز على مخاطبة الحسن بن الصباح فأهملت الرسالة.

واتخذ الوزير البطائحي الجواسيس لينقلوا إليه أخبار النزارية بمصر.

بيد أن ذلك كله لم يفلح في ألاَّ تطول يد المتآمرين الملك الآمر؛ فقد كمن له النزارية بجزيرة الروضة وانقضوا عليه وقتلوه في الرابع من ذي القعدة سنة ٥٢٤ هجرية.

واجهت الدعوة الفاطمية منذ أواخر القرن الخامس الهجري، الكثير من المصاعب مما هدّد بزوالها.. فقد انصرفت حكومة العبيدية عن نشر الدعوة مما بعث خلفاء بني العباس على أن ينشطوا للقضاء عليها، وسرعان ما أفلحوا

في العراق، وبلاد فارس في هذه المهمة، بل إن النفوذ العبيدي أضحى اسمياً فحسب في اليمن.

كما انحسر النفوذ العبيدي عن بلاد الشام، وقد ذكرنا أن حملة بدر الجمالي على الشام باءت بالفشل الذريع.

بل إن الوزراء الذين تولوا في مصر من قبل العبيديين أنفسهم حاربوا الدعوة في مصر ونكلوا بالدعاة.

فقد ظل الأفضل بن بدر الجمالي مشايعاً للمذهب الشيعي إلى أن توفي المستعلي وخلفه الآمر سنة ٤٩٥ هجرية، فولى وجهه شطر مذهب أهل السنة.

يذكر ابن الأثير في كتابه الكامل في التاريخ الجزء العاشر: أن الإسماعيلية كرهوا الأفضل بن بدر الجمالي لأسبابٍ منها: تضييقه على إمامهم، وتركه ما يجب عندهم سلوكه معهم، وتركه معارضة أهل السنة في اعتقادهم والنهي عن معارضتهم، وإذنه للناس في إظهار معتقداتهم والمناظرة عليها.

ولا ننسى أن الأفضل ألغى الاحتفال بمولد الرسول ﷺ، ومولد فاطمة الزهراء ومولد الخليفة القائم، وكان ذلك منه خطوة خطيرة لتقويض أركان الدولة العبيدية عن عمد.

كانت تلك ضربة موجهة للعبيديين الذين كانوا يحرصون على الاحتفال بتلك الأعياد تأكيداً لانتسابهم إلى فاطمة الزهراء –رضي الله عنها–.

بل إن أحمد بن الأفضل حين استأثر بالنفوذ بعد وفاة والده أمر بحذف اسم إسماعيل بن جعفر الصادق من الخطبة والدعوة إلى الإمام محمد المنتظر وهو الإمام الثاني عشر عند الإمامية.. وحذف عبارة حيّ على خير العمل من الأذان، وعين أربعة قضاة، واحداً من الإسماعيلية والثاني من الاثني عشرية، واثنين من السنة أحدهما من الشافعية والثاني من المالكية.

وأدت سياسة ذلك الوزير المناهضة للإسماعيلية إلى سعيهم إلى اغتياله ونجحوا في مسعاهم.

اجتمع سلاجقة العراق والخلفاء العباسيون على ضرورة الخلاص من الإسماعيلية، فبذلوا جهوداً جبارة لإبادتهم وإخماد حركتهم.

لقد أخذ الخليفة العباس المقتفي ووزيره ابن هبيرة يعملان على إحياء مجد الخلافة العباسية، واستعادة نفوذها، مما أدى إلى تقوية الشعور الديني الإسلامي ضد الفرق المخالفة وإن كانت تدعي الإسلام في أرجاء العالم الإسلامي.

ولا يغيب عن أذهاننا ما فعله الوزير ابن السلار زمن الظافر حين تعصّب لمذهب أهل السنة وأنشأ مدرسة للشافعية سنة ٥٤٦ هجرية أدارها الحافظ السلفي فقيه الشافعية، وبذلك مهد لرجوع المذهب السني إلى مصر من جديد.

وها هو صلاح الدين الأيوبي يوجه اهتمامه للقضاء على العبيدية الإسماعيلية في مصر، وينشئ مدرسة لتدريس الفقه الشافعي وثانية لتدريس الفقه المالكي ويعزل قضاة الإسماعيلية، ويعين ابن درباس الشافعي قاضياً للقضاة في جميع أنحاء الديار المصرية، فاستعاد المذهب السني قوته وانحسر المذهب الإسماعيلي العبيدي في مصر.

ولابد من ذكر أمر مهم عجّل بزوال الدولة العبيدية في مصر، وذلك هو المؤامرة التي تعرض لها صلاح الدين سنة ٥٦٩ هجرية، كان أطرافها الشاعر اليمني عمارة الذي هجر بلده ورحل إلى القاهرة فأكرمت الدولة العبيدية وفادته، وبالغت في الترحيب به، وتلقته مفتوحة الذراعين، والكاتب ابن عبدالصمد الذي كان يعمل في ديوان الخلافة العبيدية وانتهى عمله بخلع العاضد والدعاء في الخطبة للخليفة العباس المستضيء.

والقاضي العويرس الذي أزيح من منصبه بزوال الدولة العبيدية، وابن عبدالقوي حاجب القصر العبيدي.

وكان قائد المؤامرة الأمير الحامد بالله بن العاضد.

لكن فشلت المؤامرة لأن الله أراد له النجاة، ثم لحرص صلاح الدين حيث كان يوجه المخبرين ليأتوا له بالأخبار، وكان جزاء المتآمرين القتل والصلب.

لا نستطيع أن ننسى أن النصارى في عصر العزيز بالله كانوا يلقون التكريم والترحيب كله وذلك لأنه تزوج من نصرانية، ورفع أخويها إلى أرقى مناصب الكنيسة ، فعيّن الأول بطريركاً لبيت المقدس، والثاني مطراناً للقاهرة سنة ٣٧٥ هجرية. وسمح بإعادة بناء الكنائس والأديرة، واحتفل بأعياد النصارى ومواسمهم الدينية مشاركة لهم في شعائرهم.

بل إن من الطريف أن العزيز بالله ترك لوزيره اليهودي يعقوب بن كلس أمر الدعوة إلى المذهب العبيدي.

أولا يستحق هذا وحده أن يدمر الدولة؟! أولم يكن صلاح الدين محقاً في الإسراع بإزالة تلك الدولة الضعيفة المتدنية؟!

الدولة العبيدية واليمن:

بذل ابن حوشب وعلي بن الفضل مجهوداً كبيراً لإقامة الدعوة العبيدية في اليمن، ثم قام عامر بن عبدالله الرواحي، وصحبه علي بن محمد الصليحي فمال إلى مذهبه الإسماعيلي العبيدي، فاستخلف عامر من بعده علي بن محمد الصليحي، ودخل الصليحي في صراع مع دولة بني نجاح، وقضى عليها وضم إلى حوزته زبيد.

وقُتِل علي بن محمد الصليحي في طريق مكة سنة ٤٥٩هـ، وتولى بعده ابنه المكرم أحمد الذي ترك الأمور إلى زوجته السيدة أروى بنت أحمد بن محمد بن جعفر الصليحي التي عُرفت بـ(الحرة) كما سُميت بلقيس الصغرى، وظل المكرم وزوجته على علاقة بالمستنصر الفاطمي، وقبل وفاة المكرم أوصى أن يخلفه ابن عمه أبو حمير بن أحمد، فلما توفي سنة ٤٨٤هـ أرسلت السيدة الحرة إلى المستنصر العبيدي خطاباً ترجوه الموافقة على تعيين ابنها (عبدالمستنصر) مكان أبيه، فوافق المستنصر على ذلك، بيد أن خلافاً وقع بين الداعي أبي حمير بن أحمد الصليحي وأبي ربيع سليمان بن الأمير الرواحي، فأرسل المستنصر كتاباً إلى الصليحيين وآل الرواحي يرجوهم أن ينهوا الخلاف بينهم، فتم ذلك.

ولم يعمر (عبدالمستنصر) طويلاً، فتوفي وهو صغير، وقام نزاع بين الداعي أبي حمير وبين السيدة أروى بسبب طموحه إلى رياسة الدعوة وحكم بلاد اليمن ورغبته بالزواج بها، وبعد أن توسط المستنصر في أمر الزواج، وافقت السيدة أروى على الزواج بالداعي أبي حمير، واستأثرت بالسلطة من دون زوجها، وظلت على الولاء للعبيديين.

وعندما زال النفوذ العبيدي في مصر على يد صلاح الدين الأيوبي سنة ٥٦٧هـ بسط نفوذه على اليمن على يد أخيه شمس الدولة توران شاه سنة ٥٦٩هـ.

واجه العبيديون صعوبات كثيرة لضم الشام لسلطتهم منها: استياء الشاميين من العبيديين، مما أثر على استقرار الحكم العبيدي فيها، وكذلك قيام قرامطة البحرين بدور مهم في مناهضة نفوذهم في بلاد الشام، كما أن الحركات الاستقلالية التي تزعمها أمراء العرب في هذه البلاد أدت إلى إضعاف سلطة العبيديين، وتضاؤل نفوذ العبيديين أعطى للسلاجقة فرصة للظهور على مسرح الأحداث، وتقاسما معاً النفوذ في بلاد الشام أواخر القرن الخامس الهجري.

وكانت العراق موضع اهتمام العبيديين لأنها مقر الخلافة العباسية، فحاولوا نشر دعوتهم هناك، ونجحوا في نشر دعوتهم في بلاد فارس حتى أصبح بين صفوف جند بني بويه من الديلم والأتراك ميالون إلى العبيديين، وهما من أصل واحد ومنهج واحد، مما هيأ لنجاح البساسيري في إقامة الدعوة العبيدية في منابر بغداد، غير أنها لم تستمر؛ إذ سرعان ما دخل السلاجقة بغداد.

وفي بلاد المغرب ظل الولاء من بني زيري للعبيديين حتى أعلن المعز بن باديس خروجه على طاعة المستنصر، وعمل العبيديين على الاحتفاظ بجزيرة صقلية بصد هجمات الروم، وأخذ النفوذ العبيدي في صقلية في الضعف بعد أن انتقل المعز إلى مصر.